يوم في حياة كارولين كامل في سوق السبت بالقاهرة
/https://themarkaz.org/ar/a-day-in-the-life-of-a-saturday-market-trawler-in-cairo

كارولين كامل
في كل مرة أصطحب ابن شقيقي البالغ من العمر سبعة أعوام لنشتري لعبة جديدة، أجدني رغمًا عني أحاول أن أُملي عليه ما يختاره، موضحة له بلغة رصينة أني أجيد اختيار ما يناسبه، لا أتركه يستعرض اللُّعَب في سلام، لا أقبل برفضه، بل أعدد له مزايا اللعبة التي اخترتها من أجله، ولكنه يظل مصرًا على موقفه، ويوضح ميله إلى واحدة أو اثنتين ومع ذلك يستمر في البحث، مقاومًا تدخلي ببسالة وذكاء حتى لا يُثير عداوتي، ففي النهاية أنا الممولة. لكنه في المرة الأخيرة تأفف وقال لي: "كارو... لو اللعبة دي عجباكي اشتريها إنتي والعبي بيها".

دغدغدت كلماته العفوية قلبي وأضحكتني، ولفتت انتباهي إلى سوء تصرفي ومصادرتي لحريته، اعتذرت له، تركته يتجول بمفرده باحثًا عما يعجبه، وانتظرته بجوار المدخل حيث يجلس الموظف وسأدفع أنا. تضايقت من سلوكي، وأعطيت ضميري فقرة من التأنيب المستحق.

ثم وجدت الطفلة داخلي تُحيي ذكريات اللعب التي لم أحصل عليها يومًا، تلك الفترة حين لم نكن نملك المال الكافي لنشتري ما نرغب فيه، فقط نرضى بما هو متاح، الأكثر إثارة للحزن أن كثير مما لعبنا به كان ما تخلى عنه بعض الأقارب، وآل إليَّ وإلى أشقائي نلعب به بعد أن زهدوا هم فيه.

سرعان ما عاد ابن أخي وهو يلوح بلعبة لا تناسب ذوقي بالتأكيد. ورغم ذلك هنأته على اختياره. ثم دفعتُ وتركنا المكان.

هناك عادة أمارسها داخل مصر وخارجها؛ زيارة أسواق الأشياء المستعملة، في مصر يُعد هذا روتيني الأسبوعي كل يوم سبت، أذهب إلى سوق سينما "ديانا" بمنطقة وسط البلد في القاهرة، وهو واحد من أقدم أسواق الأشياء المستعملة، حيث يجتمع عشرات الباعة في الشوارع المتاخمة لشارع عماد الدين الشهير، يتراص على الأرض والمناضد ما لا يحصى من المعروضات، ويجوز أن ينطبق على المشهد التعبير المصري "من الإبرة للصاروخ".

حقائب سفر لا تزال تحمل ملصقات المطارات التي مرت بها، أدوات مائدة طالها الصدأ وتقشر طلاؤها ولكن هناك زبون جاهز ليشتريها، أكوام من النظارات الطبية والشمسية، كانت في يوم ما ذات بريق وفقدته الآن، وربما بمجهود بسيط تستعيد القليل من بهائها، ساعات من جميع الماركات، ولكن لا يصدر عن أي منها تكات دوران عقاربها، فازات من مختلف الخامات؛ فخار وصيني وزجاج، قطع ديكورات تحكي تاريخ فترة الانفتاح حيث عشق المصريون تغطية جدران بيوتهم بالتابلوهات والسجاجيد اليدوية والمجسمات التي تجسد أساطير صينية ويابانية، أكوام من حطام يمكن تسميتها باللأشياء كانت في يوم ما أواني مطبخ وأدوات مكتبية، وغيرها من المعروضات التي لا يمكن حبسها في كلمات.

لم أكن يومًا من هواة صيد السمك، لأنها ممارسة تطلب مهارة أساسية لا أتمتع بها طوال الوقت وهي الصبر، ولكن مع نزولي المنتظم لسوق السبت، تعلمت فضيلة عدم التوقع، ألا أذهب برغبة مسبقة في الحصول على شئ محدد، فيما عدا نيتي أن أشتري أكبر عدد ممكن من المطبوعات الورقية القديمة والخطابات وغيرها من المواد التي قد تصلح كأرشيف مكتوب، لذلك في كل مرة كنت أعود فيها إلى المنزل بغنيمة ورقية أمتدح صبري ودقتي في التفتيش بين المعروضات.

من بين ما حصلت عليه عشرات الصور الفوتوغرافية التي أثارت في نفسي شجونًا عند رؤية ما آل إليه الأرشيف الشخصي لأسرة ما، أعراس وأعياد ميلاد ومصايف وتجمعات أسرية وغيرها كلها ملقاة على الأرصفة تتناقلها الأيدي، ويُفاصل في سعر شرائها المهتمون، بل وتنتهي تلك الصور التي تجمع أفراد أسرة واحدة موزعة على العشرات من دون أن يعلم أي منهم هويات أبطالها.
اعتراني قلق أن تنتهي مقتنياتي في أحد الأيام ملقاة على ملاءة يفحصها الغرباء مثلما أفعل أنا أيضًا في مقتنيات الغير، أخبرت شقيقتي وشقيقي بأن يربوا أبنائهم على أن يعوا أهمية الأرشيف العائلي، وأن يهتموا بالحفاظ عليه، لأنه جزء أصيل من التاريخ والهوية التي يملكونها، وتاريخ العائلة لا يصح أن ينتهي ممزقًا وموزعًا كغنيمة حرب.

كانت طفولتي في التسعينيات، حيث تربعت "باربي" العروسة الممشوقة رفيعة القوام ذات الأهداب الطويلة والشعر الأشقر المنسدل بكل فساتينها ومقتنياتها على عرش اللعب، وتُوجت في خيالي العروسة الأجمل على الإطلاق، ولم يمكن لأي لعبة أخرى أن تنافسها، وبالطبع لم تنجُ باربي العالمية من محاولات تقليدها محليًا، إلا أن جميع النسخ المقلدة كانت عبثية، ونتج عن كل منها عروسة تبدو من مسافة بعيدة شبيهة لباربي، ولكن التدقيق في تفاصيلها يفضح عوارها.

لم أحصل على باربي، ولم تحل ضيفة على مائدة الشاي حيث أجلست الضفدع بجوار السيارة الكاديلاك وبعض عساكر الشطرنج وعدد من حيوانات المزرعة، لم أكن أملك عرائس صغيرة، بل شذرات لعب من كل عالم.

عدم الحصول عليها كان أمرًا مناسبًا من وجهة نظري، لأني وجدت عالمي غريبًا، لم تكن لترتاح بجوار الجالسين إلى طاولة الشاي، فربما يغازلها عسكري طائش، أو يقفز الضفدع على ركبتيها طمعًا في قبلة تُعيده أميرًا، هكذا كنت أهرب بخيالي الخصب إلى عوالم لم يطأها أحد، وأعوض فقر صندوق لعبي.

في كل مرة أزور سوق السبت أعود بمزيج من الخبرات والمشاعر التي تستحضرها الأشياء القديمة، ويعزز من تلك المشاعر ما أشتريه بالفعل. في أحد المرات وقفت عاجزة عن اتخاذ قرار الشراء من عدمه، عندما رأيت عددًا من عرائس باربي بهيئات مختلفة متراصة على منضدة بإهمال، ويبدو عليها الإرهاق من كثرة اللعب بها، وجودها بين الكراكيب والأشياء المهملة يُضفي لمحة من أسى على محياها، لم تكن ملامحها مشرقة كعهدي بها في مخيلتي، حيث اعتدت رؤيتها تنتصب بشموخ داخل علبتها الكرتونية محاطة بزينتها ومقتنياتها.

في سوق السبت كانت باربي شيئًا مثل أي شيء، مجرد لعب تخلى عنها أصحابها، وألقوا بها في القمامة، أو أيًا كانت الطريقة التي حصل بها الباعة على تلك العرائس، فالمحصلة النهائية أنها متروكة ومُهملة، يمكن ببساطة تتبع شريط حياتها: عروسة مغلفة كهدية، كان وصولها حدثًا جللًا، استقبلتها طفلة بحفاوة، عاشت مدللة فترة طويلة، ولكن بعد سنوات كبرت الطفلة وفقدت شغفها بالعرائس، تخلصت منها أو فقدتها، وأخيرًا صارت العروسة مجرد بضاعة مستهلكة في سوق الأشياء المستعملة.

عادت الطفلة الصغيرة بداخلي تحدثني عن حلم الحصول على تلك العروسة التي لم يكن لها مثيل ولم تبارح أحلامي، ولكن ما لفت نظري أن في عمري الحالي لم تحفز باربي المتاحة الآن في محلات اللعب مشاعري بالقوة ذاتها التي حفزتها العروسة المهجورة، التي فقدت حذائها وتلبد شعرها وتلطخ وجهها الجميل بعلامات من أقلام الألوان نقشتها طفلة عمدًا، فكرت أنه ربما لأن العروسة المغلفة في متناول يدي الآن، ولكني لم أسعَ إلى الحصول عليها، ولكن تلك المهملة التي سبق وأن شاركت طفلة أخرى طفولتها تُذكرني بأني لن أصير طفلة مرة أخرى، والحصول عليها مجرد ردة فعل لسد فجوة في روحي لا أكثر.

تحركت متبعدة عن الطاولة التي ترقد عليها باربي، وسعيت لتشتيت نفسي بمطالعة معروضات أخرى، وعلى الرغم من الزحام والضجيج، تمكنت من سماع صوت باربي يناديني بأن أحصل عليها وأجد لها منزلًا ربما تقضي فيه فترة تقاعدها، كقطعة ديكور في منزل سيدة في العقد الرابع لا تزال الطفلة داخلها تُحدثها وتعيد على مسامعها أحاديث الطفولة، وتكدرها بتذكر الظروف المريرة التي حالت دون حصولها على اللعب التي حلمت بها.

هربتُ بعيدًا، ولكن يبدو لي أن القدر يعاندني، حيث توقفت أمام كتلة من أعداد مجلات قديمة يعود تاريخ صدورها إلى خمسينيات القرن الماضي، للمصادفة تحوي مواضيع عن الزواج كمشروع قومي ينتظر كل شاب وفتاة كي يستثمر فيه، كانت الصور المرفقة بعشرات المواضيع لنساء في فساتين الزفاف أو يجلسن في منازل مؤثثة حديثًا ويبدو عليهن الاستقرار والرضى، فبدت الكومة كيوم عرس كبير، وعزمت على أن أحصل على أكبر عدد ممكن من تلك المجلات، وكان حظي وافرًا.

في يوم واحد حصلت على تلك المجلات بالإضافة إلى حقيبة من الجلد الطبيعي صناعة يدوية، تدل النقوش على بدنها أنها ليست محلية الصنع بل تنتمي إلى إحدى الدول الافريقية في جنوب القارة، شعرت أني أحمل غنيمة، ولكن على الرغم من ذلك كان صوت باربي لا يزال مسموعًا، وتحت وطأة إلحاح الطفلة التي تسكنني توقفت وأعدت التفكير في أن أعود إلى الطاولة وأشتري عروسة واحدة أعود بها إلى المنزل وأغسلها جيدًا وأجعلها تستلقي بجواري على الفراش كما حلمت دومًا.

في طريقي تنبهت إلى أن كثير من الأحلام وُجدت لتبقى أحلامًا، وقفت في منتصف الشارع وتحدثت مع تلك الطفلة العنيدة - التي تلح داخلي - حديث الكبار وأخبرتها أن القطط في منزلي لن تترك باربي تعيش سنوات تقاعدها لديَّ بسلام، ولذلك من الأفضل لهذه العروسة أن تحصل عليها طفلة أخرى، وأن تبقى ذكراها حية في أحلامي، عوض أن أقوم بجمع أشلائها من بين براثن القطط، وأن يكون مصيرها صفيحة القمامة.

كافيه ريش: جسد حي.. مجمد حالياً تحت وطأة سياسات القمع

كارولين كامل
٢٠١٨

"تعالي نتقابل بكرة في وسط البلد الساعة 5 في كافيه ريش".
هكذا حدد لي أحد أساتذتي في مهنة الصحافة موعد للقاء، خلال عام 2011 عندما لجأت إليه بحثاً عن عمل بعد شهور توقفت فيها عن العمل، لم أكن أعرف مكان المقهى الذي حدده، وخجلت من سؤاله عن تفاصيل وكيفية الوصول، حيث كان كلامه مقتضباً واضحا، ولم تنم نبرته عن وجود أدنى شك حول معرفتي بالمكان من عدمه.

في عام 2008 انتقلت إلى القاهرة للعمل بالصحافة، ويعتبر البعض وسط البلد النداهة التي تجذب عشاقها من أبناء الأقاليم الذين انتقلوا إلى العاصمة للعمل في المجال الصحفي والثقافي، إلا أن ندهتها لم تكن قوية بما يكفي لجذبي، نظراً لكونها بعيدة عن مسار حياتي اليومي، والمقرر في الخروج للعمل والعودة بمواعيد صارمة ولا مجال للتنزه إلا في حدود المنطقة التي أسكن فيها وهي منطقة شبرا.

إلا أن ثورة 25 يناير 2011، بانطلاقها من ميدان التحرير، وتشعبها في دروب شوارع وميادين منطقة وسط البلد، كانت لها من القوة أن تدفعني لكسر قيود المواعيد الصارمة، والخروج لاكتشاف تلك المنطقة التي لم تكن أكثر من منطقة تجارية في مخيلتي.

ورغم أن معرفتي الأولى لشوارع وميادين وسط البلد تشكلت برفقة أصدقاء اكتسبتهم كما اكتسبت المعرفة في الميدان، وكانت المقاهي الشعبية هي المحطة التي نرتكن فيها لاحتساء مشروب وتدخين الشيشة في حدود ما تسمح به ميزانيتنا، لم يكن "كافيه ريش" أحد تلك المحطات التي يمكن أن يتوقف عندها قطار خروجنا اليومي، كمجموعة من الشباب الذين يعملون في الصحافة.

ولمعرفتي القليلة بمنطقة وسط البلد، قررت يوم لقائي بأستاذي أن يكون ميدان "طلعت حرب" بوصلة أنطلق منها للبحث عن "كافيه ريش"، كونه الميدان الذي يتوسط المنطقة ومنه تتفرع شوارع عدة لميادين أخرى، احترت قليلاً في أي أتجاه أسلك، ثم قررت سؤال أحد الباعة عن "كافيه ريش"، فاجئني أني أبعد عنه خطوات قليلة، سرت حيث أشار لي وبالفعل رأيت كتابة باللون الأحمر على زجاج واجهة من بعيد، Cafe Riche بدا بجدرانه الخشبية وواجهاته الزجاجية مميزاً ومختلفاً عما حوله من محال، وكأنه بقعة منسية لم تطالها بعد يد التغيير التي طالت مباني وأثريات منطقة وسط البلد.

دخلت "كافيه ريش" لأول مرة في النصف الثاني من عام 2011، بدعوة أستاذي، وأخذتني الدهشة عندما استقبلتني أول جملة لزائر جديد مثلي يُعرب عن إعجابه بالمكان:

"معقولة متعرفيش كافيه ريش.. دي القهوة اللي كان بيقعد عليها نجيب محفوظ ".

كانت المعلومة كفيلة بخطف أنفاسي، فها أنا أجلس - ربما - على المقعد نفسه الذي جلس عليه الأديب العالمي، ودون الثلاثية وأولاد حارتنا والكرنك وزقاق المدق وغيرها من الروايات التي رسمت لي كفتاة - من مدينة المحلة الكبرى في دلتا مصر - القاهرة بأحيائها وسحرها وزخمها.

تعلقت عيناي بالمناضد والكراسي ذات الطابع القديم، وبظهور النادل بملابسه الزرقاء المميزة والعمة البيضاء التي تتوسط رأسه، لم أستطع منع نفسي من الحملقة فيه لأن ملابسه ذكرتني بالأزياء التي رأيتها في الأفلام العربية القديمة.

تغطي جدران المقهى في القسم الداخلي بجوار البار، صور بالأبيض والأسود لأدباء وممثلين سينما وشخصيات عامة، فوتوغرافيا تحكي تاريخ المكان مجسدا في شخصيات صاغوا التاريخ الحديث لمصر في مختلف المجالات الثقافية والفنية والسياسية أيضاً.

المقهى الذي يفخر بأصالته المصرية، تأسس في الواقع على يد ثري نمساوي يدعي بيرنارد ستينبرج في 26 أكتوبر 1914، ولم يحصل المقهى على اسمه "ريش" في عامه الأول، ولكن بعد عام واحد اشتراه رجل فرنسي يدعي هنري ريسن وأطلق عليه "كافيه ريش"، على غرار المقهى الباريسي الشهير.

ولظروف استدعاء هنري للجيش، أضطر لبيعه لرجل ليوناني اسمه ميشيل بوليتسي سنة 1916، وآلت ملكيته سنة 1932 لرجل يوناني يدعى مانولاكس، وفي عام 1942 تم بيعه لرجل يوناني أخر يدعى جورج إيفتانوس وسيلي، وبعد رحلة انتقال ملكية المكان لملاك من جنسيات أجنبية، حصل المقهى أخيرا في عام 1960 على أول مالك مصري وهو عبد الملاك ميخائيل موظف في السكة الحديد من صعيد مصر.

"في سرداب سري كمان تحت الثوار أستخبوا فيه"

الجملة التي أثارت القشعريرة في بدني، عندما تلقيت معلومة عثور ملاك المقهى على باب سري يقود لسرداب أسفل المقهى وبه ماكينة طباعة قديمة يعود تاريخها إلى عام 1898، دليل على ما تم تداوله من دور المقهى في ثورة 1919، فأنا الآن أحتسى البيرة في مكان اختبئ فيه أجدادي من المناضلين ضد الاحتلال الإنجليزي، المعلومة التي ذكرها أيضاً المؤرخ عبد الرحمن الرافعي في كتابه (تاريخ مصر القومي 1914- 1921) عن دور المقهى في ثورة 19.

"كافيه ريش" أيضاً المكان حيث انتظر المواطن المصري عريان يوسف سعد، الذي حاول اغتيال رئيس وزراء مصر صاحب الدولة يوسف وهبة، في 15 ديسمبر 1919، لتشكيله حكومة موالية للاحتلال البريطاني.

من الشعبوية لسياسة الانتقاء

"كافيه ريش" تأسس ليكون مقهى شعبي وليس مطعم، تُقدم فيه المشروبات ومن بينها البيرة والكحوليات مثل مقاهي عديدة اشتهرت بها شوارع القاهرة عامة ومنطقة وسط البلد خاصة مثل مقهى الحرية أيضاً، ولهذا جذب المثقفين والأدباء في خمسينات القرن الماضي كمقهى شعبي يقدم البيرة أيضاً، إلا أن المقهى شهد

تغييرات جذرية منذ إعادة افتتاحه في نهاية التسعينات، وتحول لمطعم وبار، وتقديم المشروبات العادية شئ ثانوي يتم تقديمه بعد تناول وجبة من الطعام.

شرط تناول الطعام الذي وضعه مالك المقهى، مجدي عبد الملاك الذي توفى منذ ثلاثة أعوام، بعد إعادة افتتاحه في نهاية التسعينات، رافقه أيضاً عملية انتقاء للزبائن يقوم بها يومياً حيث يجلس دوماً خلف مكتبه على مدخل المقهى، وإذا لم يجذبه هيئة الزبون فإنه يلفظه فوراً بادعاء عدم وجود أماكن متاحة حتى ولو كانت المناضد خالية، الانتقاء الذي خلق حالة من العداوة للمقهى من قِبل بعض المثقفين والشعراء، ومنهم من قاطعوه بل وهاجموه أيضاً مثل الشاعر الراحل أحمد فؤاد نجم في قصيدته التحالف.

الانقسام الواضح حول "كافيه ريش" بدا وكأنه صراع بين أجيال مختلفة من المثقفين، فالأجيال الأصغر سناً وبعض المثقفين من التيار اليساري وجدوا في ممارسات مالك المكان سياسة عنصرية قائمة على التمييز الشكلي، بينما من بقى من المثقفين على علاقة بالمكان كانوا من شريحة عمرية أكبر، بالإضافة إلى شريحة من رواده لم يواجهوا مواقف مباشرة تحول دون دخولهم، وذلك لكونهم رواد ذو مكانة خاصة لدى مالك المكان.

ومن اللافت أيضاً أن لـ "كافيه ريش" في فترة زمنية رواد من السياسيين والدبلوماسيين العرب والأجانب، مثل الرئيس العراقي الراحل صدام حسين خلال فترة دراسته في مصر، والرئيسا المصريان الراحلان جمال عبد الناصر وأنور السادات قبل أن يصبحا في حركة الضباط الأحرار، وكوكبة من نجوم السينما مثل نجيب الريحاني وأنور وجدي، والراقصة تحية كاريوكا التي كانت شخصية سياسية أيضاً.

اكتسبت العديد من الأصدقاء الأكبر سناً منذ شاركت في ثورة 25 يناير، ولغالبيتهم مواقف مباشرة مع "كافيه ريش"، ما بين مقاطع للمقهى وبين من له علاقة خاصة بالمكان، وممن حكوا لي عن علاقتهم بالمكان كانت المصورة راندا شعث.

تقول "أول ذكرى لي مع ريش كان في أواخر الثمانينات، أتخرجت واخدت الماجستير، ورجعت مصر واشتغلت مصممة كتب في دار نشر الفتى العربي، وكان مديري الفنان عدلي رزق الله لما كنت اعمل شغل كويس ويحب يكافئني يعزمني في ريش على حمام محشي فريك".
المقهى الذي عاصرته راندا منذ أن كان مكشوفاً، عبارة عن ممر طويل حيث يجلس رواد المقهى يستمتعون بالهواء يتناولون طعامهم، ويحتسون المشروبات كافة ومنها الكحولية أيضاً، إلا أن التغيير الذي طال المقهى في نهاية التسعينات من خلال تحصينه بحاجز خشبي وواجهات زجاجية، توضح راندا أن السبب من وجهة نظرها كان التغيير الذي شهده المجتمع تجاه الحريات عامة وتناول المشروبات الكحولية علناً خاصة.

موقف البعض العدائي تجاه المقهى تقول عنه راندا "أكيد طبعاً في ناس مضايقة من المكان.. بس عدلي رزق الله كان بيقول لي إنه مش بيحب بعض المثقفين اللي بيجوا ريش لأنهم كانوا يجوا يقعدوا ويطلبوا حاجات كتير ويطلعوا يمشوا من غير ما يحاسبوا، واللي بيفضل قاعد هو اللي بيحاسب، وعادة ممكن يكون

كاتب كبير معروف أو واحد من رواد المكان، ودي حاجة كانت بضايق مجدي وربما يكون من ساعتها قرر ينقي الناس".

تؤكد راندا عدم معرفتها الكيفية التي ينتقي بها مجدي زبائنه، إلا أن ما جذب راندا وشريحة أخرى للمكان خاصة النساء منهن، هو سعى مالكه دوماً للحفاظ على مساحة الحرية والأمان التي يوفرها لرواده، حيث يمكنهن الجلوس واحتساء الكحول والتحدث بحرية دون التعرض لمضايقات.

ثورات

لعب "كافيه ريش" دور سياسي في العشرينات من القرن الماضي، وعاد ليكون مسرحاً للأحداث السياسية مرة أخرى في سنة 1972 انطلقت منه ثورة الأدباء احتجاجًا على اغتيال الروائى الفلسطيني غسان كنفانى، وبعدها أغلق المقهى، وبعد إعادة فتحه بفترة، خرجت منه مظاهرة عام 1978 بقيادة يوسف إدريس، وإبراهيم منصور احتجاجا على معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل، وتم إغلاقه مرة أخرى لأسباب غير معروفة، وتم إعادة فتحه في منتصف الثمانينات، وإغلاقه مرة أخرى حتى نهاية التسعينات.

المقهى الذي اتبع مالكه سياسة انتقائية، شهد تغييرات على مستوى استقباله للزبائن بعد أسابيع قليلة من اندلاع ثورة 25 يناير 2011، وفتح أبوابه لرواد جدد مع تقليل للقيود المتعلقة بالمظهر الخارجي والفئة العمرية، وتم تزيين المناضد بعلم مصر داخل مزهرية بيضاء صغيرة.

"لما شفت شباب صغير زيكم كدة، ومنهم بيلعبوا عود ويغنوا أغاني الشيخ إمام جوه في ريش، انبسطت جدا وحسيت أن مجدي نفسه بيشارك في الثورة بطريقته، كمان شفت محجبات كتير، وعلى فكرة مجدي لما كان بيختار الزبائن مكنش بيختار أبدا على أساس الهوية الدينية، لأنه كان مؤمن أن الدين لله والوطن للجميع، ومنساش أبدا كحك عيد الفطر لما كان بيوزعه علينا.. وكمان كان بيسمح للمحجبات اللي يعرفهم يدخلوا، لكن هو كان بيخاف أحياناً أن زبائن بتفكير معين يدخلوا ويبقى صعب يتفهموا مثلا شرب الكحول وتحصل مشاكل ملهاش لزمة" تقول راندا.

"كافيه ريش" يرتبط في أذهان الكثيرين من رواده بأحداث وتواريخ، شكلت جزء من ذاكرتهم وعلاقتهم بالمكان، ويكفيني أنا شخصياً حديثة العهد به المرور بجواره والوقوف لحظات قليلة مسروقة للتطلع في المكان والبحث ربما عن صديق أعرفه يجلس بداخله لأدخل من أجل إلقاء تحية، واستعادة ذكريات إفطار يوم الجمعة الذي دعيت إليه أنا وشباب آخرين برفقة رفقاء الميدان الأكبر مننا سناً وكانوا من رواد المقهى.

تقليد الإفطار الجماعي الذي اتبعه المقهى منذ ستينات القرن الماضي وحتى الآن، دشنه مجدي عبد الملاك يوم الجمعة وهو موعد ندوة الشاعر نجيب سرور، ويشارك في ندوته الشاعر أمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله ومجموعة من الشعراء.

يفتح المقهى أبوابه باكراً لاستقبال رواده لتناول الفلافل الساخنة وأطباق الفول المختلفة وغيرها من الأطعمة، وخلال العام الأول من ثورة 25 يناير 2011 كنا نتناول وجبة الإفطار ذاتها ونحن نتابع ما يحدث في ميدان التحرير على شاشة تلفاز مُعلق في مقدمة المقهى لهذا الغرض.

توقفت الحياة السياسية في مصر، وألغيت الكثير من الفعاليات الثقافية، ومُنعت التظاهرات السياسية، وأصبح خطر الحديث في الأماكن العامة حول السياسة وحول أمور أخرى كثيرة يهدد رواد "كافيه ريش" كما يهدد رواد الأماكن العامة كافة، وأنسحب المقهى مرة أخرى داخل جدرانه الخشبية الزجاجية، وأصبح المقهى هزيلاً برواده القلائل، وحظر الحديث في أمور كثيرة.

"بيتهيألي كانت أخر فترة شفت ريش زحمة كان في أوائل التسعينات أيام عدلي رزق الله الله يرحمه.. لكن في أيام الثورة ولغاية 2012 انبسطت لما رجعت له نفس الحالة دي من الزحام.. بس أنا خلاص بطلت أروح من فترة عشان مجدي الله يرحمه.. وكمان لأن مفيش حاجة نتكلم فيها.. الناس كلها مكتئبة"، راندا التي تخشي أن يختفي "كافيه ريش" مثل مظاهر مصرية خالصة طواها النسيان.

"كافيه رش" الذي شهد نقطة تحول في حياتي أنا أيضاً، منه بدأت رحلة مهنية جديد، اكتسبت الأصدقاء والمعرفة، التقطت أنفاسي بعد تغطيتي لأحداث "محمد محمود" في نوفمبر 2011 وقدم لي مالك المكان الماء والعصير، أجلس لأشرب مشروب وأتخيل أني برفقة نجيب محفوظ ويوسف إدريس وتحية كاريوكا وغيرهم من الشخصيات التي رافقتني منذ الصغر في الكتب والسينما.

اليوم بعد أن أصبح بمقدروي تناول الطعام في "كفيه ريش" - رغم تمتعي بالاستثناء بأن يُسمح لي بالجلوس فقط لاحتساء المشروبات – لا تزال زجاجة بيرة مع بعض المقبلات في "كافيه ريش" تستحق أن أذهب بمفردي أو برفقة صديق، نجلس في صمت نتبادل بعض الأحاديث بحذر يشوبه الحسرة.

"كافيه ريش" يتجاوز المسميات سواء مقهى، مطعم أو بار، ينتقده البعض ويعشقه البعض، تعرض للإغلاق أكثر من مرة لأسباب غير معروفة بصورة أكيدة، يختفي ويظهر، ينتعش ويخفت، حي كجسد الوطن الهامد بفعل سياسات القمع، ولا ينكر أحد على جدرانه شهادتها الحية لنقاشات وحواديت المئات غيرنا من المصريين حلموا بالتغيير على مدار مائة عام تقريباً وخرجوا في ثورات لم تنجز أحلامها بعد، يبدو الآن بخلوه غالبية الوقت من الرواد وكأنه مجمد مثل الحياة السياسية في مصر لأجل غير معروف.

الفصل ٣٣

- فيكتوريا... فيكتوريا...
سمعت اسمي يتردد من إحدى السيارات أمام باب الكلية، التفت لأرى من يناديني، لكني لم أرَ أي زميل أعرفه. ثم رأيت يوسف يطل من نافذة سيارته وهو يلوح لي حتى أراه، دُهشت من رؤيته، وأسرعت في خطواتي لأصل إليه.
سألته بسرعة إن كانت هبة بخير، ابتسم وقال لي إنها بخير على حد علمه، فسألته عن سبب وجوده، فقال إنه أتى ليراني.
ظهرت الدهشة على وجهي، وقلت له:
- بصراحة لما سمعت اسمي افتكرت حد من أصحابي في الكلية.
عوج شفتيه وسألني إن كنت معتادة على أن أركب في سيارات مع زملاء الكلية، جاوبته أني لم أركب بمفردي سيارة أي من الزملاء، ولكني أقف معهم أمامها أو ألقي عليهم التحية وهم بداخلها، أو أركب مع مجموعة.
ابتسم مرة أخرى، وقال إنه حتى برفقة مجموعة لا يوجد سبب لأن تركب فتاة سيارة رجل، ثم عرض عليَّ أن يوصلني إلى المنزل، فقلت له:
- مهو أنا قلت لك مش بركب عربيات لوحدي مع حد.
خرج من السيارة وأغلق الباب بهدوء، وأخبرني أني ركبت معه أكثر من مرة برفقة هبة، فكررت عليه المقطع الأخير من كلامه «برفقة هبة». ألح عليَّ وتعلل بأنه ليس شخصًا عاديًّا وإنما ابن خالة صديقتي التي أسكن برفقتها، بالإضافة إلى أني أعرف أسرته.
ركبت بجواره وشعرت بسعادة حاولت مداراتها، سألته لماذا يهتم إن كنت أركب سيارات مع زملائي أم لا، ابتسم ومال عليَّ، وقال هامسًا:

- غيرة. تنفع الإجابة دي؟
ارتبكت ودبت حرارة في جسدي، تعرق تحت إبطي وبالطبع كفِّي، وتسارعت دقات قلبي. ضحك يوسف وقال إني لا أزال كما أنا، لم أتغير في السنوات الأربع الماضية، وإن صرت أجمل بكثير. غمرتني البهجة، وتحسست شعري لأؤكد على كلامه بأني صرت أجمل.
تنهد يوسف، وتابع حديثه بأن السبب ليس الغيرة فقط وإنما مسألة مبدأ، وقال:
- البنت المحترمة مش بتركب عربيات مع رجالة، لأن العربية زيها زي أوضة النوم بالظبط، يحصل فيها أي حاجة.
أخبرته أن لدي صديقات وأصدقاء كثيرون يركبون السيارات معًا ولا يحدث بينهم أي شيء. نظر إليَّ وسألني لماذا أصدقهم بهذه الثقة. قلت له لأنهم أصدقائي. سألني أين تعرفت على هؤلاء الأصدقاء، جاوبته بأني تعرفت عليهم في الكلية، ولم آت على ذكر أصدقاء فرقة المسرح، قال لي أنه لا وجود لأصدقاء من خارج الكنيسة، بل هم مجرد زملاء، ونحن لا نصدق ما يقوله هؤلاء لنا، وحذرني من أن يكون هؤلاء الذين قصدتهم مقربين. هززت رأسي بالنفي على الرغم من أنهم كانوا مقربين.
لم أخبر هبة عن لقائي بيوسف. وتكررت زياراته لي، كان ينهي دوام عمله في إحدى شركات زيوت السيارات في الساعة الخامسة، ومنصبه كبير حصل عليه فور تخرجه من كلية الهندسة بوساطة كبيرة، دفعت فيها والدته عشرات الآلاف من الجنيهات كما روى لي، وقال لي:
- أنا مسيحي بس غني، فأقدر اشتري اللي المسلم الفقير ميقدرش يشتريه. ودي الميزة الوحيدة اللي عندي في البلد دي.
في أسابيع قليلة قطعت علاقتي بالعمل المسرحي تلبية لطلب يوسف، فسألتني هبة عن سبب عدم ردي على اتصالات أصدقائنا من الفرقة، أخبرتها عن علاقتي أنا ويوسف، ابتسمتْ وقالت لي إن هذا هو التأثير المتوقع عند ارتباطي برجل مثله، يحرم المرأة من كل شيء بحجة خوفه عليها، ويعطي نفسه الحق أن يعيش كل ملذاته. حذرتني أنه خذل كثيرات، لأن والدته طنط سماح ترفض ارتباطه بأي بنت، وتقول عن كل فتاة إنها لا تصل إلى مستواهم ولا ترغب في يوسف إلا طمعًا في أمواله، والغريب أن يوسف لا يحاول أن يدافع عن حبه، ويترك الفتاة بحجة أن والدته ترفض تزويجه بها. تضايقت من كلام هبة عن يوسف، وطردت ذكرى ما فعلته طنط سماح معي في بلطيم، لأني كنت أصدق يوسف، فهو قال لي إنه يحبني وينوى أن نتزوج فور تخرجي.
اقتصر وجودي في الكلية على حضور بعض المحاضرات وأهملت المشاريع، ولم أعد أجلس مع أصدقائي الذين اكتسبتهم خلال سنوات، وصرت أخرج مع يوسف، وأخبره بكل شيء عن يومي في تقرير مفصل، اعتدنا على أن نذهب إلى أماكنه المفضلة، ونقضي يوم الإجازة في مول سيتي ستارز الذي لا أحبه ولكن يوسف يعشقه.
أحببت سيارته بشكل خاص لأني حصلت على قبلتي الأولى فيها، وكدت أن أفقد وعيي، فضحك وقبلني أكثر، وأخبرني كم يحبني بجنون. كانت قبلته أحلى مما تخيلتها في أحلامي، وأحلى شيء تذوقَته شفتاي على الإطلاق.
طلب مني أن ألمسه في أي مكان أرغب فيه، توترت من عرضه، وإن كنت قد تخيلت نفسي وأنا ألمس عنقه بكفي، ولكن بشفتَي صار ملمسها حقيقة. صارت يداي أكثر رشاقة في تحسس جسده بعد أن أمسك يوسف بيدي وعلمني كيف ألمسه. أحببت ذقنه المشذبة، وكان احتكاكها بعنقي يجعلني أرغب في المزيد، وأتمنى أن أشعر بها تلمس كل جسدي، حتى آثار أصابعه على جسدي حين كان يمد يديه أسفل ملابسي ويتحسسني أحببتها. انتظرت أن يعرض عليَّ أن أزوره في منزله، وأن نفعل الأشياء التي لا تفقد العذراء عذريتها بسببها، لكنه لم يأت على ذكر هذا الموضوع، ولم أتجرأ أنا على طرحه.
أحببت السيارة والوقت الذي أقضيه فيها، إلا أننا كدنا أن نتسبب في حادث أكثر من مرة، عندما كان يوسف يتنافس على الكباري مع سائقي سيارات أخرى، بالإضافة إلى أنه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من مسابقة الفتيات اللواتي يقدن بسرعة كبيرة.

في أحد الأيام خرجنا معًا بعد أن تخليت عن المحاضرة الأخيرة، كنا في طريقنا إلى مصر الجديدة على كوبري ٦ أكتوبر، كررت على مسامعه كم أكره مضايقته للفتيات ومعاكسته لهن وأنا برفقته، وسألته عما يفعله في غيابي إن كانت هذه هي الحال وأنا جواره. قال لي بعصبية:

- فيكتوريا، بلاش تعملي خناقة زي عادتك. عشان أنتو غاوين خناقات. وبعدين انتي حاجة والبنات دي حاجة تانية.

التفت إليه بجذعي، وسألته عما يفرقني عنهن. أجابني بهدوء بأني أولًا محترمة، وثانيًا لا أقود سيارة، فسألته كيف أدرَك أن تلك الفتيات غير محترمات، فقال لي إن الفتاة عندما تقود سيارة ويحاول رجل أن يقطع عليها الطريق ليسبقها، وهي ترفض أن تترك له الطريق وتُصر على أن تزيد من سرعتها وتستكمل تقدمها، فهي تعطيه إشارة أن يستمر في ملاحقتها، وإنما إن كانت محترمة فستترك له الطريق ليمر، لأنها في النهاية لن تتفوق عليه مهما زادت من سرعتها، فلا داعي لاستفزازه إلا إن كانت ترغب في استمالته.

سألته لماذا يهاجم رجل فتاة بالأساس ويقطع طريقها، ضحك بصوت عالٍ، وقال لي:

- مزاج. حاجة مش هتفهموها. وكفاية نكد يا فيكتوريا.

ألصقت وجهي بزجاج السيارة، وسألته إن كنت نكدية طوال الوقت لماذا يصر على أن يتزوجني؟ قال من دون أن ينظر إليَّ:

- عشان انتي خام وعاجباني.

التفت إليه مرة أخرى، وطلبت بنبرة حادة أن نعود أدراجنا إلى المنيل، تأفف، ولكن عندما أصررت حاول ملاطفتي وجذبي باتجاهه كما اعتاد أن يفعل، ابتعدت عنه، وكانت المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك. تجاوزنا الكوبري وبحث عن شارع هادئ وأوقف السيارة، وسألني بعنف إن كان هناك رجل آخر في حياتي تعرفت عليه مؤخرًا، لأن تمردي وأسئلتي الكثيرة لا يبشران بالخير، ويجعلانه يعيد التفكير في كزوجة. قلت له إنه يهذي وأني أريد أن أعود إلى المنزل. حاول أن يقترب مني مرة أخرى فابتعدت، وكررت رغبتي في العودة إلى المنزل. انفعل وسبني سبابًا كالذي أسمعه في الشارع، واتهمني أني أعرف رجلًا آخر، ربما يكون دكتور أو مُعيد في الجامعة سيضمن لي تخرجًا بامتياز. انفعلت وقلت له:

- أنت سافل.

لا أعرف كيف خرجت تلك اللفظة من بين شفتَي، انتفض جسدي، وحاولت أن أفكر كيف سأعتذر، إلا أن خروج يوسف من السيارة وصفعه الباب بقوة وإشعاله سيجارة زادت من تسارع أفكاري، ومن تلعثم الكلمات على لساني.

وبعد ثوانٍ من الهدوء، حلقت فوق السيارة التي أحبها، ورأيت ما فعلته على مدار أشهر؛ توقفت عن تصميم التيشيرتات وبيعها في الجامعة، بعد أن أخبرني يوسف أنه لن يقبل أن تتسول زوجته من ترقيع الملابس وبيعها. غضبت من وصفه لما أفعله بالتسول وتحقيره من الملابس التي أصممها، إلى جانب أنه كان يسخر من دراستي طوال الوقت، ويقول لي: «إيه كلية الفنون الجميلة دي؟ هتطلعوا ايه مايكل أنجلو؟ بلا هم. شوية عيال صيع بشوفهم قدام الكلية بلبسهم وشعرهم».

لم أخبره عن عملي في الفرقة المسرحية وتخليت عنه رغمًا عني، لأن يوسف قد أرسى قاعدة ألا أخرج بمفردي إلا في حدود الذهاب إلى الكلية، وحاولت هبة وحسام إثنائي عن هذه القرارات، وأردت أن أرضخ لهما، إلا أن رغبتي في الزواج من يوسف كانت أكبر. وكانت هبة تقول لي: «ايه اللي حصلك يا فيكتوريا.. ازاي تتغيري كدة وتتخلي عن أحلامك عشان حتة عيل طري.. بيصرف مرتبه على الحشيش والنسوان.. وانتي عارفة انه بينام مع ستات؟».

أخبرتها أنه أقسم لي أنه توقف عن هذه الأفعال، لأنها كانت مرحلة عابرة انتهت بقراره الزواج مني، وأنه سينتظر حتى نكون معًا. «شخرت» لي هبة، وقالت بهدوء ألا أعاتبها في يوم على إنها لم تحذرني، ثم تركتني.

طلبت من يوسف أن يرافقني إلى سور الأزبكية يوم الجمعة لأشتري كتبًا لي ولأبي عوض الذهاب إلى المول، فسخر من عرضي، وألمح إلى أن هذه الأماكن وهذه الممارسات تجعل مني ثقيلة الظل ومُعقدة. ثم وضع قائمة

بالأماكن التي نخرج فيها يوم الجمعة، تبدأ بحضور قداس في كنيسة في مصر الجديدة، ونلتقي بأب اعترافه، وهو أحد القساوسة المشهورين ويظهر على شاشات التلفاز، ويعتبره يوسف أباه الروحي، ويحمل له الهدايا من حين إلى آخر، ويمنحه أموال عشور والدته.

وصار أبي يسألني أحيانًا: «فين يا بنتي الكتب العظمة اللي عودتيني عليها؟». فأجاوبه بأني توقفت عن الذهاب إلى السور بسبب انشغالي في مشروع التخرج. وأصبحت يداي خاليتين دومًا عند عودتي، لا كتب، ولا أدوات جديدة، ولا أطباق لحم الخنزير المدخن بعد أن أغلقت محلات لحم الخنزير عقب إعدام القطعان في العام السابق.

تبخر شغفي بالدراسة، ولم أقطع في مشروع التخرج خطوة واحدة، وبقى يوسف شغفي الأوحد، الأمر الذي كان يسعده كثيرًا. اعتنيت بمظهري، وبذلت وقتًا في تعلم النقش الدقيق بطلاء الأظافر، اشتريت مكواة شعر كهربائية تجعل الكيرلي أكثر ثباتًا، وأغرقني يوسف بهدايا غالية لم أعرف كيف أستخدمها كلها.

عدت إلى السيارة على صوت إغلاق يوسف بابها بعنف، كان قد دخن أكثر من سيجارة، جلس بهدوء خلف المقود، ثم التفت بجذعه ليحدثني، وقال لي:

- بيتهيألي مش انتي نموذج الست اللي احبه يشيل اسمي.

عدل من جلسته، وقاد السيارة بسرعة جنونية أرعبتني، شرعت في البكاء وكدت أن أنهار من فرط خوفي. وصلنا أمام منزلي في المنيل من دون أن نتبادل كلمة واحدة طوال طريق عودتنا، وعرفت حينها أن هذه هي النهاية، وعوض أن اعتذر له كما تخيلت، تنفست بهدوء، وقلت له:

- على فكرة يا يوسف، ولا مرة انت قطعت فيها الطريق بالعربية على بنات عرفت تسبقهم. دايمًا هما بيسبقوك لأنهم أشجع منك. أنت جبان وبتخاف على العربية، ويمكن على نفسك. وكمان بيعملوا لك حركة وحشة بصباعهم. حقهم بصراحة.

ثم نزلت من السيارة وأغلقت الباب بعنف.